ميشيل فوكو وتجاوز المناهج الفلسفية التقليدية: قراءة في المنهج الأركيولوجي

عبد الحقّ طالبي❖ جامعة عباس لغرور❖ خنشلة❖ الجزائر

Email : sw.blz@live.fr

تاريخ الإرسال: 2018/04/24 تاريخ المراجعة : 2018/06/10 تاريخ القبول : 2018/07/18

ملخص

يُعَدُّ المنهج الأركيولوجي الذي وضع آلياته الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي "ميشيل فوكو"، أحد أبرز المناهج الفلسفية التي طَفَت على سطح الدراسات الفلسفية والتاريخية في الإبستيمي المعاصر، حيث حاول "فوكو" من خلال الأركيولوجيا نقد البُنَى الثقافية الغربية في مجالاتها المختلفة، بهدف الكشف عن الأسس الإبستيمولوجية التي تُساهم في التأسيس للخطاب في المراحل المعرفية المختلفة، ومن ناحية أخرى، فقد سَعَا "فوكو"إلى تحقيق هدفين متكاملين، تمثَّلا في: تقويض الميتافيزيقا وتفكيك مقولاتها، إضافة إلى محاولة تحقيق مبدأ العلمية في الدراسات التاريخية والفلسفية. وهذا ما سنقوم بتحليله في هذه الدراسة.

كلمات مفتاحية: ميشيل فوكو، الأركيولوجيا، الجينيالوجية، الحداثة، ما بعد الحداثة، الخطاب، اللغة، الجنون، السلطة، المنهج الحفري، القطيعة الإبستيمولوجية، الميتافيزيقا.

Abstract

The archaeological approach founded by the French philosopher Michel Foucault is one of the most important philosophical methods of contemporary epistemology. Foucault, through archeology, has attempted to criticize Western cultural structures in various fields in order to identify the epistemological foundations that contribute to the establishment of discourse in different paradigms. In addition to trying to carry out scientific studies in history, we will determine where Foucault sought to destroy metaphysics and deconstruct his arguments.

Keywords: *Michel Foucault; archaeology; genealogy; modernism; postmodernism; discourse; authority; metaphysics*

Résumé

L'approche archéologique fondée par le philosophe français Michel Foucault est l'une des méthodes philosophiques les plus importantes de l'épistémologie contemporaine. Foucault, par l'archéologie, a tenté de critiquer les structures culturelles occidentales dans divers domaines afin de dégager les fondements épistémologiques qui contribuent à l'établissement du discours dans différents paradigmes. Où Foucault a cherché à détruire la métaphysique et à déconstruire ses arguments, en plus d'essayer de réaliser des études scientifiques dans l'histoire.

Mots-clés: *Michel Foucault; archéologie; généalogie; modernisme; postmodernisme; discours; autorité; métaphysique*

مَثَّل تَعدُّد المناهج الفلسفية أهمَّ الخصائص والمميّزات التي طَبَعت الإبستيمي المعاصر، فقد تَعدَّدت المنطلقات والقراءات، هذا ما أدَّى ضرورة إلى التَّعدُّد في النتائج، نظرا لاختلاف المنهج المُعتمد في تحليل الظاهرة نفسها، وربما يمكن القول إنَّ الفتح الجينيالوجي الذي قام به "فريديريك نيتشة"، كان بمثابة الشرارة الفلسفية التي أَلهبَت فَتِيل النقد الحادِّ الذي انصَهَرت معه مختلف الخطابات الغربية والسَّرديات الكبرى، الغارقة في وثنية المثالية والمطلقية. فكانت الجينيالوجيا النيتشوية بمثابة الجدار الصَّلب الذي تحطَّمت عليه مختلف مقولات خطاب الحداثة الذي شيَّدته الفلسفة الغربية منذ اللحظة السقراطية، وصولا إلى اللحظة الديكارتية وما استتبعها من الفلسفات المثالية الألمانية على شاكلة فلسفة "إيمانويل كانط" و"فريديريك هيجل"؛ فمع بزوغ شمس القرن الثامن عشر الذي اتَّخذ التنوير شعارا له، التفَّت المشاريع الفلسفية حول هذه المقولة سَعيًا إلى تحقيق هدف الخروج من حالة القصور التي يُعَانِيها العقل الأوروبي بالتعبير الكانطي؛ فكان تحرير الذات من رِبْقَةِ الوصاية الممارسة عليها من قِبَلِ السلطات المختلفة، الغاية التي سَعَى فلاسفة الأنوار إلى تحقيقها؛ هذا ما تجسَّد في المجالات المختلفة، سياسيا، اجتماعيا، واقتصاديا. فمشروع الحداثة بمختلف مقولاته ما فتئ أن أَبَانَ

عن عيوبه وسلبياته؛ فمختلف الوعود التي بَشَّرَ بها الخطاب الحداثوي، كانت مُجرَّد شعارات رنَّانة وأوهام زائفة، لم تجد لها الذات صدى على أرض الواقع، هذا ما جعل الحضارة الغربية تعيش أزمة قَيْمِية ووجودية بامتياز؛ ولأنَّ الفيلسوف طبيب الحضارة بالتعبير النيتشوي، كان لزاما إيجاد البدائل التي يمكن لها أن تُخرج الذات من حالة الرُّكود التي آلت إليه. كانت هذه هي المهمة التي حاول الفلاسفة المابعد حداثيين تحقيقها على أرض الواقع، فقد كانت النظرة الإصلاحية لما أفسدته الحداثة تَصُبُّ في جوهر المشهد الفلسفي والثقافي لمختلف المشاريع الفلسفية، وبالرَّغم من الاختلاف في المنطلقات والمسلمات لكنها تلتقي في غاياتها وأهدافها.

لم يكن "نيتشة" _بما قَدَّمه من أعمال مختلفة_ مرحلة عابرة في الفكر الفلسفي عموما والغربي على وجه الخصوص، بل إنَّ ما قَدَّمه من مشروع نقدي حادٍّ، سَيَلْقى في الفكر المعاصر قُبُولا وإجماعا مُنْقطع النظير من قِبَل الكثير من الفلاسفة الغربيين، وهو القائل: "إنَّ الرجال العظماء يولدون بعد مماتهم"، فكان لهذه النبوءة أن تتحقَّق فعلا، فقد أصبح للنبي زارا أشياع ومُرِيدين، وهم من عُرِفُوا فيما بعد بالنيتشويين الجدد، ومن أبرز هؤلاء الفيلسوف الفرنسي "ميشيل فوكو". فما لم تُحطِّمه مطرقة الجينيالوجيا النيتشوية من مقولات الحضارة الغربية، سيكون لها نصيب من النقد والتحليل من طرف الأركيولوجيا الفوكوية؛ فما قَدَّمَه "فوكو" من أعمال منذ بداياته الأولى، ستكون حملة شرسة ضدَّ الأنساق الفلسفية الغربية، إذ عمل "فوكو" على السَّفر بين الأرشيفات بِعَيْنِ المنقِّب المنتقد، باحثا عن التمظهرات والتجليات التي من خلالها يمكن كشف الألاعيب السلطوية في المجالات المختلفة، بداية بخطاب الجنون والمؤسسات الطبية، مرورا بالمؤسسة العقابية، وصولا إلى توليد مفهوم السلطة الحيوية وكيف انتقلت السلطة من السيطرة على الروح إلى السيطرة على الجسد؛ هذا ما حلَّله "ميشال فوكو" في"الرقابة والعقاب"، وثلاثيته المعنونة بـ: "تاريخ الجنسانية". هذا على المستوى المعرفي، أمَّا على المستوى المنهجي فقد مثَّل كتاب "أركيولوجيا المعرفة" المؤلَّف الذي خصَّه "فوكو" لشرح منهجيته الحفرية في النقد، فعلى امتداد صفحات الكتاب،حاول"فوكو" بيان أصالة منهجه الأركيولوجي من خلال مجموع الآليات الإجرائية التي اعتمدها كترسانة منهجية في مسيرته

النقدية. انطلاقا مما سبق يمكننا التساؤل عن الدلالات المفهومية لمنهجية الحفر الأركيولوجي الفوكوية، فإن كان المنهج الأركيولوجي يُعنى بوصف الخطاب وتحليله ونقده، فكيف عرَّف "فوكو" الخطاب من وِجهة نظر أركيولوجية؟ وفيما تتمثَّل أهم الغايات والمقاصد الإبستيمولوجية التي سعى "فوكو" إلى تحقيقها من خلال مشروعه الحفري النقدي؟

1. في مفهوم الأركيولوجيا والخطاب:

أولا: في الدلالة المفهومية للأركيولوجيا:

يُعرَف المنهج الفوكوي بالمنهج الأركيولوجي، وقد استعمل "فوكو" هذا المفهوم لأوَّل مَرَّة في كتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" (Classique Histoire de la Folie a L'âge)، بالإضافة إلى أنَّ كتابه "مولد العيادة" (Naissance de la Clinique) كان يحمل عنوانا فرعيا وهو" أركيولوجيا النَّظرة الطبِّيَّة"، وبعد نشر "فوكو" "الكلمات والأشياء" (Les Mots et les Choses) حمل هو الآخر عنوانا فرعيا، وهو "أركيولوجيا العلوم الإنسانية"، وفي سنة 1969م، أصدر "فوكو" كتابه الذي يُوضِّح فيه بشكل مُعَمَّق الآليات التي اعتمدها في بلورة المنهج الذي اعتمده، وهو الكتاب المعنون بـ"أركيولوجيا المعرفة"(L'archéologie du Savoir)، هذا ما يَدُلُّ على مدى مِحوريَّه مصطلح الأركيولوجيا في الفلسفة الفوكويَّة، فالأركيولوجيا اصطلاحًا، تعني العلم الذي يُعنى بدراسة الحضارات التي شَيَّدَها الإنسان قديمًا، باستعمال الأدوات والوسائل المختلفة، بهدف الحفر والتَّنقيب عن الآثار والمعالم التي خلَّفتها تلك الحضارات؛ أمَّا بالنِّسبة لـ"فوكو"، فإنَّه يستخدم هذا المفهوم للمنهج الذي وضعه في دراسته وتحليله للبنى المعرفيَّة الغربيَّة، حيث يُقِرُّ في أركيولوجيا المعرفة، أنَّه أطلق على منهجه "وبكيفية ربَّما رسميَّة إسم الحفريات"،[1] التَّي ستعمل على وصف الممارسات الخطابية بطريقة مخالفة لباقي المناهج التاريخية؛ ففي نظر "فوكو" أنَّ المناهج المعمول بها غير قادرة على وصف الخطاب وتحليله بالكيفية اللَّازمة، وانطلاقا من هذا، يُبَرِّر "فوكو" اعتماده على المنهج الأركيولوجي في قوله: "فقد سبق أن وَجَدتُ مناهج كثيرة قادرة على وصف اللُّغة وتحليلها، بحيث لا يمكن لأيٍّ كان أن يزهو بنفسه ويُعجب بها، مُدَّعيًّا أنَّه يُضيفُ منهجًا جديدا إليها"،[2] هذا ما يدل على السأم الذي كان ينتاب "فوكو" من المألوف الذي لا يُبدع ولا يأتي بأيِّ جديد، بحكم أنَّ المناهج المُعتمدة في

الدّراسات التاريخية، لا تخرج عن كونها تائهة بين جدران النَّسقيَّة الرَّتيبة، وانطلاقًا من هذه النُّقطة بالذَّات، يطرح "فوكو" سؤالا مُهمًّا فيما يخصُّ الجديد الذي سَتُقدِّمه الأركيولوجيا مقارنة بالمناهج الأخرى؛ حيث يقول: "فماذا بوسع الحفريات أن تُقدِّمه بالنَّظر إلى ما لم يكن في وِسْعِ المناهج الوصفية الأخرى أن تُقدِّمه؟ وما جزاء مُهِمَّة شاقَّة كهذه؟"[3]

يُجِيب "فوكو" عن هذه الإشكالية في حوار له مع جريدة "Le Monde" الفرنسية سنة 1969م، بأنَّه "استعمل لفظ الأركيولوجيا للدَّلالة على وصف الوثيقة، ولم يقصد اكتشاف بداية، أو الكشف عن عظام وهي رميم"؛[4] إذن فالوصف والوثيقة هما أساس الأركيولوجيا، التي يُعَرِّفها "فوكو" بقوله: "أمكننا استنادا إلى قانون الألفاظ -والذي لا يُطابق قانون علماء اللغة- أن نُطلق على تلك الأبحاث اسم حفريات، وهو لفظ لا يَتضمَّن أيَّ محاولة للجري واللَّهث وراء البدايات، كما لا يُقْرَنُ التَّحليل بأيِّ تنقيب أو سبر جيولوجي، بل يَدُلُّ على الفكرة الأساسية والمحوريَّة العامَّة لِوَصفٍ هدفه استنطاق المَاقِيلَ في مستوى وجوده، وفي مستوى الوظيفة العباريَّة التي تُمارس عليه، والتَّشكيلة الخطابيَّة التي يَنتَسبُ إليها، والمنظومة العامَّة لاحتفاظه وظهوره، فالحفريات تَصِفُ الخطابات كممارسات مُحَدَّدة في عنصر نظام الاحتفاظ والظهور".[5]

يتَّضح من هذا، أنَّ الأركيولوجيا لا تسعى للبحث عن البدايات الأولى، فهي ليست مبحثا جيولوجيا أو تنقيبيًّا، لأنَّ الوصف الأركيولوجي يسعى في جوهره إلى استنطاق المنطوقات(énoncé) أو العبارات المُتمَثَّلة في الأرشيف؛ ويمكن القول أنَّ منهجية النَّقد الأركيولوجي، تسعى للكشف عن الأسس التاريخية التي تشكَّلت في ظلِّها الخطابات، من خلال تحليل القطائع (Les Ruptures) التي شهدتها مختلف الإبستيميات، بحكم أنَّ الخطاب هو ما تسعى الأركيولوجيا إلى وصفه وتحليله ودراسته، إضافة إلى أنَّها تهدف أساسا إلى وضع اليد على طريقة مُغَايرة في رصد نُظم المعرفة، عن طريق تحليل الخطاب في مستوى ظهوره وأفوله واندثاره، "ويتمثَّل ذلك في تصوُّر تاريخ الثَّقافات كما لو كان سلسلة من النُّظم المعرفية تتقاسم لفترات تاريخية دائرة الحقيقة"؛[6] وبهذا يكون التاريخ الأركيولوجي، دراسة نقدية لمختلف

الخطابات التي شَكَّلت في فترة ما مركزيَّة الحقيقة، لأنَّ الأركيولوجيا بمثابة "وصف وتحليل للتاريخ العام لمجموع الممارسات الخطابية وغير الخطابية، فتحليليَّة تاريخ الخطاب فيها تخلّي مطلق عن الشُّمولية التاريخية، لكنَّها في الوقت نفسه تُعنَى بمجموع الآثار الفعلية للخطاب عبر التاريخ"،[7] إذ يَغْدُو التاريخ عبارة عن سلسلة من الأحداث المتقطِّعة، التي لا تعرف الاتِّصال أبدا، لكونها خاضعة لمبدأ الشَّتات والتَّبعثر؛ فكل مرحلة تاريخية، لها من الصِّفات والخصائص ما يجعلها تتميَّز عن باقي المراحل التي تليها؛ وبناء على هذا، تتَّجه الأركيولوجيا نحو تلك الانفصالات التي يشهدها الخطاب، بالنَّظر إلى أهمِّيتها في بلورة خطاب الحقيقة.

فالاستراتيجية الفوكوية، تُسلِّط الضَّوء على المجال المعرفي في جميع مستوياته وتجلِّياته، هذا ما يصطلح عليه "فوكو" بـ"الإبستمي"(épistémè) الذي يعني به: "مجموع العلاقات التي بإمكانها أن تُوحِّد في فترة مُعَيَّنة بين الممارسات الخطابية، التي تفسح المجال أمام أشكال أبستمولوجيا وعلوم وأحيانا بمنظومات مُصاغة صُورِيًّا، إنَّها النَّمط الذي يَتِمُّ حسبه الانتقال داخل تشكيلة خطابية، إلى التَّنظير الإبستيمولوجي والعملية والصياغة الصورية".[8] فالإبستيمي يُعبِّر عن مجموع العلاقات المترابطة، التي من شأنها أن تُعطي الشَّرعية لمعرفة مُعيَّنة، أو لمجموع معارف ليصطلح عليها بوصفها عِلمًا، وهي أيضا ما يَمنح الشرعية لظهور التَّنظيرات الإبستمولوجية، سواء في مستواها النَّظري أو العملي؛ إضافة إلى ما سبق، يرى "فوكو" أنَّ الإبستيمي يتمثَّل في "مجموع العلاقات التي يُمكننا الوقوف عليها في فترة ما بين العلوم فيما نُحلِّل مستوى انتظاماتها الخطابية".[9] ولهذا تُحدَّد المهمَّة الجوهرية للأركيولوجيا، في كونها تسعى للكشف عن الأسس المعرفية التي قام على أساسها البراديغم المعرفي، إذ يكون ذلك من خلال تحليل سلسلة العلاقات القائمة بين مختلف العلوم؛ هذا ما يُؤَدِّي إلى تنقيَّة التاريخ الميتافيزيقي من مختلف مقولاته، ومن جُلِّ المظاهر التي تُوحِي بالذَّاتيَّة، وبالتَّالي إلغاء القداسة التي تُعطَى لمقولة الذات في التحليلات التاريخية.

وعلى هذا الأساس، جهد "فوكو" في عزل ووصف مختلف النُّظم المعرفية، التي تَرْتدُّ في حقيقة تاريخ تكوينها وظهورها، إلى ثلاث حِقْبَات كبرى في تاريخ الفكر الغربي، اصطلح عليها

تِبَاعًا: عصر النهضة، العصر الكلاسيكي و العصر الحديث،[10] دون أن يكون بين هذه المراحل أَيُّ استمرار أو اتِّصال، بل فواصل وقطائع (Des Ruptures). استنادا إلى هذا، سيعمل "فوكو" على تَتَبُّع مختلف المعارف التي تكوَّنت وظهرت في الحقب الزمانية الكبرى والمختلفة، تتبُّعًا تاريخيا وفقا لمنظور تحليلي أركيولوجي، كاشفا من خلاله عن البُنَى الدَّاخلية لمجمل الخطابات، بعيدا في ذلك عن السِّياق التَّاريخي بالمفهوم الكلاسيكي الذي تعتمده المناهج الأخرى؛ خصوصا أنَّ "فوكو" في معرض تحليلاته، لا يفتأ يَصف تلك المناهج المعتمدة في تحليل المنظومات المعرفية التي تَشكَّلت عبر التاريخ، بأنَّها قاصرة أو عاجزة عن الوصف الدَّقيق، وعليه سنحاول أن نُبيّن في هذا السِّياق، إشكالية العلاقة بين الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار. فما هي طبيعة العلاقة التي تحكم المنهج بحقل تاريخ الأفكار؟ وما هي أبرز الخصائص التي تُميّز الأركيولوجيا كمنهج يعتمد الوصف، التَّحليل والتَّأويل (بالمعنى الجينيالوجي) عن تاريخ الأفكار؟

ثانيا: في الفرق بين الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار:

تُمثِّل الأركيولوجيا نقطة الإبداع القصوى في الفلسفة الفوكوية، نظرا لكونها أسَّست لقواعد منهج جديد في دراسة الخطابات في مختلف مستوياتها وممارساتها، دراسة ذات طبيعة تاريخية، نظرا لكون الخطاب -موضوع الأركيولوجيا- ظهر في فترة ما من فترات التاريخ، فكان على "فوكو" ضبط الفرق بين ما أسَّس له من منهج، وبين المنهج المعمول به في أغلب الأبحاث التاريخية، وهو تاريخ الأفكار. حيث يرى "فوكو"، أنَّه يتوجَّب عليه منهجيًّا القيام "بتمييز طريقته عن تاريخ الأفكار، ومن جهة أخرى إبراز أوجه اختلاف التحليل الأركيولوجي عن المناهج الوصفية لذلك التاريخ".[11]

بالرَّغم من أنَّ المهمَّة صعبة كما أقرَّ "فوكو" بذلك، أي صعوبة التَّميز بين منهجين يكادان أن يكونا متداخلين إلى حَدٍّ يصعب معه الفصل بينهما؛ إلَّا أنَّ "فوكو" يرى أنَّ تاريخ الأفكار يتميَّز بأنَّ "له دورين اثنين، فهو من ناحية يحكي تاريخ الأطراف والهوامش، ولا يحكي إطلاقا تاريخ العلوم، بل تاريخ تلك المعارف النَّاقصة غير المؤسَّسة، والتي لا تتمكَّن من الحصول على صفة العلميَّة"،[12] فتاريخ الأفكار لا يقف على جوهر المعارف والخطابات، بل يكتفي فقط بالسَّرد التاريخي، واقفا على الهوامش دون التَّعمُّق في الماهية الأساسية التي تحتويها تلك المباني

المعرفية التي أُخضعت للتَّحليل، فالمنظومات المعرفية فيما يرى "فوكو"، تَختصُّ بكونها لم تستطع يوما أن ترقى إلى مستوى يُؤَهِّلها لتكتسي صفة العلميَّة، فهي معارف ناقصة لم تُؤسَّس على قواعد علميَّة متينة؛ إضافة إلى أنَّ تاريخ الأفكار يهتمُّ فقط بدراسة "تاريخ تلك الفلسفات الأشباح، التي تُخالط الآداب والفن والعلم والقانون والأخلاق وحتى حياة البشر اليومية، تاريخ تلك الموضوعات الفكريَّة العريقة، التي لم تتبلور يوما ما في منظومة دقيقة فرديَّة[...] تاريخ تلك الضَّوضاء الجانبيَّة، التي تُثيرها الكتابة اليومية التي تختفي بسرعة ولا تحصل أبدا على صفة الأثر[...] مثل المجلاَّت، الجرائد، والنَّجاحات العابرة والمؤلِّفين غير المنقطعين عن التَّأليف".[13] يقول "فوكو"

وبناءا على هذا، يتَّضح مدى ضيق المجال الذي يعمل من خلاله مُؤرِّخ الأفكار، فهو مُجرَّد وصف سطحي لمختلف الممارسات الجانبية، سواء في مجال الفن أو الآداب أو القانون؛ وفي العموم مجموع المعارف التي لم تتمكَّن أبدا أن تضع لنفسها أثرا في التاريخ الإنساني؛ وما يجعل مجال هذا الحقل المعرفي ضيِّقًا إلى أبعد الحدود، هو الاهتمام المبالغ فيه بالمؤلِّف، أو كاتب الوثيقة، واعتباره الحلقة الأساسية في الدِّراسة والبحث التاريخي.

ومُجمَلُ القول، أنَّ تاريخ الأفكار مُجرَّد تحليل للآراء والتَّعليق عليها، بعيدا كل البعد عن تحليل المعرفة، والكشف عن بنياتها الدَّاخليَّة التي جعلتها تظهر، فهو يقتفي أثر الخطأ أينما وجده، دون أن يُعنَى بتحليل الحقيقة المتضمَّنة في الوثائق التي يعرضها على الدراسة والوصف، إضافة إلى إغفاله للخلفيات التاريخية لتلك الوثائق المُحلَّلة، هذا ما يجعله غارقا في متاهات الذاتية، التي تُبعد البحث عن العلمية والدِّقَّة في النتائج.

أمَّا المستوى الثاني الذي يُعنى بدراسته تاريخ الأفكار، فهو "النَّفاذ إلى الفروع المعرفية القائمة ودراستها وتأويلها"،[14] هذا ما سيعمل على نزع صفة الهامشيَّة، ليتحوَّل هذا الفرع المعرفي إلى أسلوب في تحليل الموضوعات من زاويَّة مُحدَّدة، فاهتمامه مُنصبٌّ على تاريخ العلوم والآداب والفلسفات، بوصف المعارف التي تَشكَّلت من خلالها أسس الجانب العملي، دون أن تَمتدَّ إلى الجانب النَّظري والصُّوري؛ هذا ما يُحيل بالضرورة إلى استكشاف مختلف التَّجارب

التي يُدوّنها الخطاب في اتّصالها وانفصالها، لأنَّ تاريخ الأفكار في جوهره "فرع معرفي يتناول البدايات والنهايات، ويهتمُّ بوصف ألوان الاتّصال المُبهمة، وألوان العودة، وبإعادة إنشاء التَّطوُّرات الخَطِّيَّة المتعاقبة للتاريخ"؛[15] وانطلاقا من ذلك، سيكون مُؤرّخ الأفكار في حالة تَتبُّع دائم لنشأة المفاهيم المختلفة، وكيفيَّة انتقالها من حقل إلى حقل آخر، وكيف ترتبط الآثار المُنتجة بمختلف المؤسَّسات الاجتماعية؛ كما يسعى دائما إلى إعادة إحياء التُّراث القديم، الأكثر تأثيرا وفاعلية ورواجا في صورته الأولى التي نشأ وتبلور فيها، وفي هذا الصَّدد يقول "فوكو": "يغدو تاريخ الأفكار فرعًا معرفيًّا تتداخل فيه المناهج والطُّرق، كما يغدو وصفا للدَّوائر المتراكزة التي تحيط بالآثار، وتُشدِّد عليها وتربط بينها، وتُدرجها في كل ما ليست هي".[16]

إذن فهذا الدَّوران هو الركيزة التي يستند إليها تاريخ الأفكار، هذا التَّاريخ الذي لا يُحلِّل إلَّا الولادة الصَّمَّاء، مُهمَّته الأساسية الجري وراء بدايات النُّشوء، بُغية الوقوف عند الأصل وإعادته إلى حاضر لا يَمُتُّ بصلة إلى لحظة تَكَوُّنها، يخضع كل هذا إلى ثلاثة أفكار رئيسية، متمثِّلة في النَّشأة والاتّصال والكِلِيَّة، وهي أفكار تُعتبر من باب التَّقليد الذي تجاوزته ضرورات البحث التاريخي، إضافة إلى أنَّها من ترسُّبات الإرث الميتافيزيقي، وبالتَّالي سيغدو التاريخ ميتافيزيقيا محضا. في حين أنَّ الوصف الحفري، لا يُمتُّ إلى ما تمَّ ذكره من خصوصيَّات تاريخ الأفكار بأيّة صلة، لأنَّ الوصف الأركيولوجي كما حدَّد له "فوكو" معالمه الأساسية، "فيه تَخَلٍّ مطلق عن تاريخ الأفكار، ورفض منهجي لمسلَّماته وطرقه، ومحاولة لإقامة تاريخ آخر لما قاله البشر"،[17] عن طريق تناول مختلف القطائع والانفصالات الإبستيمولوجية، دون الاكتراث للبداية أو النهاية.

فالمُهمَّة الأساسية للأركيولوجيا، لا تتمحور في البحث عن الأفكار والمعارف التي من شأنها أن تظهر أو تختفي في خطاب ما، بل إنَّ غايتها تتجسَّد في "تحديد هذه الخطابات من حيث هي ممارسات تحكمها قواعد مُعيَّنة، فهي تنظر للخطاب على أنَّه وثيقة"،[18] فيكون معول التَّحليل الأركيولوجي، مُوجَّهًا إلى مختلف البنى الخطابية، بمعنى أنَّ الخطاب يُعتبر مادَّة الوصف الأركيولوجي، لكونه موضوع البحث والدِّراسة، شريطة أن يتمَّ التَّمييز بينه وبين الوثيقة، لأنَّ

الأركيولوجيا تُلغي دور الوثيقة في عملية البحث التاريخي، لكونها ليست مبحثا تأويليا يسعى لإنتاج خطاب من خطاب آخر يُعتبر أوَّليا، بل إنَّ الأركيولوجيا تُعنَى بالخطاب باعتباره نُصْبًا أثريًّا قائما بذاته، له تجلِّياته وآليَّاته واستراتيجيته في الممارسة.

إضافة إلى ما سبق، يرى "فوكو" أنَّ التَّمايز واضح بين الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار، من خلال استبعاد أن تكون الأركيولوجيا تسعى للبحث عن مظاهر التَّواصل أو الاستمرارية بين الخطابات في الحقب المعرفية المختلفة، واللهث وراء تحديد لحظة البداية ومجموع التَّحوُّلات التي اعترت الخطاب، بل ينحصر دورها في: "تحديد الخطابات في خصوصيَّتها، وفي تَتبُّع تلك الخطابات من خلال مظاهرها الخارجيَّة وفي صُوَرها الذَّاتية، لأنَّ غايتها تحليل الفوارق والاختلافات بين صِيَغِ الخطاب ووجوهه"،[19] بعيدا في ذلك عن الاهتمام بتاريخ الاستمراريَّة، الذي يُعْتَبَرُ من قبيل التاريخ الأسطوري؛ ومن هذه النقطة يُؤسِّسُ "فوكو" لفكرة أساسية في وصف الخطاب، وهي القطيعة أو الانفصالية (La Rupture)، التي تُلغي معها مقولة الذَّات كمحور في تحليل الأرشيف.

زيادة على ما سبق، يرى "فوكو" أنَّ الأركيولوجيا تختصُّ بمميِّزات تجعل منها منهجا مغايرا لباقي المناهج التاريخية والنقدية، تَتمثَّل في إسقاط الأثر وعدم الإعلاء من شأنه، وإنَّما البحث عن اللَّحظة التي يظهر فيها، بعيدا في ذلك عن ربطه بالذات التي أنتجته، سواء منفردةً أو مجتمعة، وذلك بعزل الأحداث الخطابية عن سِيَّاقها الاجتماعي والنَّفسي على حدٍّ السواء، لأنَّ "الإلحاح على دور الذَّات المبدعة، واعتبارها علَّة وجود الأثر ومبدأ وحدته، أمر لا تُقرُّ عليه أركيولوجيا المعرفة"،[20] فالخطاب على تنوُّعه، يجب النَّظر إليه على أنَّه نصٌّ كباقي النُّصوص الأخرى، دون إضفاء هالة من القداسة عليه، تجعل من جوهر ممارساته مغطًّى بِحُجُبٍ لا يتمكَّن الباحث الأركيولوجي من إدراكها، فالأركيولوجيا تُلغِي كلَّ الاعتبارات الذَّاتية والأيديولوجية، مهما كان مصدرها، وبهذا يصل التاريخ إلى تحقيق الموضوعية، مُتجاوزا نسقيَّة التَّحليل الميتافيزيقي.

آخر الخصائص التي يُفردها "فوكو" للأركيولوجيا، نفيه أن تكون محاولة "لترديد ما قِيل، من خلال التَّعمق في ماهيَّة الخطاب وهويَّته"،[21] فالوصف الأركيولوجي ليس تكرارا لخطابات قد تَبلورت، ولا إعادة صياغتها بلغة مخالفة، ولا يكون ذلك إلَّا بنزع تلك الرابطة الوثيقة بين المؤلَّف وأثره، بتجاهل هدف الكشف عمَّا أراد أن يقوله البشر من خلال ما كانوا يُفَكِّرون فيه؛ لأنَّه عادة ما يتحوَّل التحليل إلى دراسة الجانب السيكولوجي أو السوسيولوجي، وهذا ما يُبعد النَّص عن سياقه الذي وُضِعَ فيه، كون التحليل الأركيولوجي لا يسعى للكشف عن البنية النفسية للنَّص، من خلال ربطها بالمؤلف؛ فالتَّعامل يكون مع الخطاب مُنعزلا، بمعنى أنَّ الخطاب كأرشيف، مختلف عن باقي العناصر الأخرى، التي من شأنها أن تُبعِده عن سياقه الحقيقي، ويكون ذلك بتحليل منطوقات الخطاب، و الكشف عن آثارها ومدى ارتباطها بالواقع الذي ظهرت فيه.

من خلال أهمِّ الخصائص التي تتميَّز بها الأركيولوجيا، نلاحظ بأنَّها تَبرُز كمنهج قائم بذاته، فهي وصف وتحليل للخطاب الذي يُعتبر موضوعها ومادَّة دراستها؛ إضافة إلى أنَّ تلك المبادئ التي تُميِّز الأركيولوجيا، نلمس فيها انسجاما وتناسقا إلى أبعد الحدود، فكلُّ خاصيَّة سنجد بأنَّ لها فاعليَّة في وصف البُنَى المعرفية، وسنجدها حاضرة في نقد مختلف الخطابات التي بُنيَّت على أساسها الحضارة الغربية؛ يتمُّ ذلك عن طريق أربع مفاهيم أساسية، يُحدِّدها "فوكو" بالتسلسل الآتي: مفهوم الحادث، مفهوم السِّلسلة، مفهوم الإطِّراد، مفهوم شرط الإمكان؛ إذ يرى "فوكو" أنَّ هذه المفاهيم، تُعتبر وجها حقيقيًّا للتَّمايز بين منهجيَّته وتاريخ الأفكار "فالحادث يتعارض مع الخلق والإبداع، وتتعارض السِّلسلة مع الوحدة، والاطِّراد يتعارض مع الطَّريقة، وشرط الإمكان يتعارض مع الدَّلالة"،[22] يقول "فوكو".

تتميَّز إذن الأركيولوجيا عن تاريخ الأفكار، سواء على مستوى الموضوع أو الهدف، أو المبادئ والقواعد المُعتمدة، ويُلخِّص "فوكو" هذا التَّمايز في قوله: "إنَّ وصف الخطاب يتعارض ومنهجيَّة تاريخ الفكر[...] فالأمر في تاريخ الفكر يتعلَّق بإعادة إنشاء خطاب جديد[...] فهو دوما وباستمرار يسعى إلى البحث عن المعنى الحقيقي وراء المعنى المجازي[...] أمَّا تحليل الخطاب،

فَهَمُّه الأساسي هو التَّعامل مع العبارة كشيء قائم الذَّات لا يُحِيل إلى مستوى آخر، له خصوصيَّته وتميُّزه كحدث لا أصول له، وتحديد شروط وجوده".[23]

يَتَّضح من خلال هذا التحليل لمختلف أوجه الخلاف بين المنهج الأركيولوجي وتاريخ الأفكار، خصوصية المنهج الفوكوي، وتميُّزه عن باقي المناهج الأخرى، سواء التاريخية أو التأويلية أو اللِّسانية، التي تُعنى بدراسة الخطاب، وتحليل البُنى المعرفية التي تكوَّنت عبر التَّاريخ مُتَّخذة من الأرشيف موضوعا لها، ومادَّة أولى في دراستها، هذا الأرشيف الذي يُنتظم في خطاب يشكِّل محور التَّحليل الأركيولوجي؛ وذلك يدفعنا للتَّساؤُل عن ماهية الخطاب من الزَّاوية الأركيولوجية، فما هي دلالة الخطاب عند "ميشيل فوكو"؟

ثالثا: في دلالة الخطاب: Le Discours

يُمثِّل الخطاب حقل الحفر الأركيولوجي، بِحُكم أنَّ الأركيولوجيا في جوهرها منهج لدراسة الخطاب ووصفه، والوقوف عند تشكُّلاته، انقطاعاته وانفصالاته في المراحل الكبرى التي شهدتها الحضارة الغربية ومرَّت بها، فالمُتأمِّل في المؤلَّفات الفوكوية، سيلاحظ -بالتأكيد- أنَّ مفهوم الخطاب قد احتلَّ مركزا أساسيا في مختلف أعماله، وإن بدرجات متفاوتة؛ فبدءا من "تاريخ الجنون"، يعتبر "فوكو" أنَّ مشكلة الجنون يُنظر إليها مع أدباء النَّزعة الإنسانية "ضمن ما يُحيل عليه الكون الخطابي"،[24] والأمر نفسه نلمسه في "مولد العيادة"، حين يتحدَّث "فوكو" عن الخطاب الطِّبِّي وكيفيَّة تحليله ووصفه. إلاَّ أنَّ الظُّهور المكثَّف للخطاب وطريقة وصفه، نجده في كتاب "الكلمات والأشياء"، من خلال دراسة أهمِّ الخطابات التي بلورتها الحضارة الغربية، في الحقب الكبرى المحدَّدة تباعا، من عصر النهضة إلى العصر الكلاسيكي ثمَّ العصر الحديث. إذ سيلاحظ "فوكو"، أنَّ الخطاب كان الميزة الأساسية لإبستيمي العصر الكلاسيكي، من خلال المهمَّة التي أوُكلت إليه، المتمثِّلة في "إسناد اسم إلى الأشياء، فخلال قرنين من الزمان، كان الخطاب الغربي المكان الأوَّل للأنطولوجيا"؛[25] أمَّا في "أركيولوجيا المعرفة"، الذي يُعدُّ تنظيرا منهجيًّا لمختلف الحقول الخطابية التي تمَّت دراستها وتحليلها (الجنون، المرض، اللغة، الاقتصاد، البيولوجيا)، فكلُّ هذه الممارسات تنتظم في خطاب يُعرِّفه "فوكو" بأنَّه: "أحيانًا يعني

الميدان العام لمجموع العبارات، وأحيانا أخرى مجموعة مُتميّزة من العبارات، وأحيانا ثالثة، ممارسة لها قواعدها، تدلُّ دلالة وصف على عدد مُعَيَّن من العبارات و تشير إليها".[26]

إذن فالخطاب هو مجموع العبارات في مجال عام أو مُتَمَيِّز، يُشكِّل معرفة مُعيَّنة حول موضوع مُعيَّن، تَتَحدَّد معالمه وِفق الممارسات الفعليَّة التي يكتسيها، ويضيف "فوكو" إلى مفهوم الخطاب بأنَّه: "مجموعة من العبارات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية قابلة لأن تَتكرَّر إلى ما لا نهاية، يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ[...] بل هو عبارة عن عَدَدٍ محصور من العبارات، التي نستطيع تحديد شروط وجودها. وهو على هذا النَّحو، ليس شكلا مثاليًّا، ولا زمانيًّا، له بالإضافة إلى ذلك التاريخ".[27]

يَتَّضح من خلال هذا، أنَّ الخطاب عند "فوكو" هو بمثابة سلسلة من العبارات المندرجة ضمن تشكيلة خطابية واحدة، تكون العبارة (المنطوق-Enoncé) وِحْدَتُهُ الأساسية، أو بمعنى آخر؛ إنَّ العبارة هي النَّواة الأولى التي يتشكَّل منها الخطاب، فمجموع عبارات يستلزم وجود خطاب، فلتحليله والكشف عن ممارساته، لابدَّ من الإلمام بالمعنى العامّ للعبارة، التي استخدمها "فوكو" فيما يُصَرّحُ به: "إمَّا لأُشير بها إلى عدد من العبارات (كما لو كان الأمر يعني أفرادا وأحداثا فرديَّة) أو لأُميّزها عن تلك المجموعات التي أُسمّيها الخطابات (مثلما يتميَّز الجزء عن الكلّ) وتبدو العبارة لأوَّل وهلة كعنصر بسيط، أو جزء لا يتجزَّأ قابل لأن يَستقِّل لذاته ويُقيم علاقات مع عناصر أخرى مشابهة له[...] حبَّة تطفو فوق سطح نسيج هي عنصره المكوّن، فالعبارة أبسط جزء في الخطاب".[28] فالعبارة هي الوحدة الأساسية في تكوين أيّ خطاب، إذن فهي بمثابة الجزء من الكل، فالكل هنا يُمثِّل الخطاب، والجزء تُمَثِّله العبارة، التي تُدْرَكُ على السطح، لأنَّها تطفو على مختلف المساحات الخطابية التي أنتجتها البشرية، وِفْقا لضرورات مُعَيَّنة، ميزتها الأساسية الانفصال الحاصل بينها في مستويات تكوينها أو ممارساتها؛ فإن كانت العبارة هي الوحدة الجوهرية في الخطاب، فهذا يعني أنَّ أيَّ قطيعة تكون أولا على مستوى العبارة التي تبدو لا قيمة ولا أهميَّة لها، لكونها تظهر فجأة وتختفي بسرعة، "إلَّا أنَّها تظلُّ مع ذلك حدثًا [...] فالعبارة بكلّ تأكيد وبما لا يَدَعُ مجالا للشكِّ حدث غريب".[29]

ولأنَّ العبارة تَحتَلُّ موقعًا جوهريًّا في التَّحليل الأركيولوجي، فإنَّ "فوكو" يحاول أن يُميّزها بخصائصها ومميّزاتها، عن باقي المفاهيم الأخرى التي تتداخل معها، سواء على مستوى المفهوم أو الممارسة؛ على غرار القضية، والفعل اللساني والجملة. فما هو قوام العبارة؟ وما هي مُمَيّزاتها الأساسية؟ وما هو الفرق بينها وبين القضية؟ ومن جهة أخرى، هل العبارة تُرَادف في معناها الجملة؟

لإعطاء معنى مُتفرّد للعبارة، يقوم "فوكو" بإجراء مقارنات مفهوميَّة، بين العبارة ومجموعة من المفاهيم ذات الصِّلة المباشرة بها، بدءا من علاقتها التَّلازميَّة مع اللغة، "فبدون عبارات ليست ثمَّة لغة، لكن ليست كلُّ عبارة شرطا لوجود اللغة [...] فاللغة لا توجد إلَّا من حيث هي منظومة لبناء عبارات ممكنة، ومن جانب آخر، لا توجد إلَّا من حيث هي وصف لمجموع العبارات الواقعة، فاللغة والعبارة ليس لهما نفس المستوى في الوجود، ولا يَسْتَوِيَان فيه"؛[30] غير أنَّ هذا التَّلازم الحاصل بين اللغة والعبارة، لا يجعل منها شرطًا في وجود اللغة، فقد تكون اللغة ولا توجد معها العبارة، ومنه فإنَّهما غير متساويَان في الوجود. إذ يُبَيّن "فوكو" في هذا الصَّدد، أنَّ قيمة العبارة فيما تحمله من دلالة في خطاب ما، فمستوى وجودها يقترن بما تُمثِّله من دور في سلسلة المنطوقات التي يتكوَّن منها الخطاب.

أمَّا فيما يخصُّ الإشارة وعلاقتها بالعبارة، فيعتبر"فوكو" أنَّ العبارة بمثابة إشارة أو دليل، لأنَّه "ينبغي القول بأن ثمَّة عبارة كلَّما كُنَّا أمام عدَّة إشارات متجاورة، -ولم لا ربَّما؟- كلَّما كنَّا أمام دليل، ودليل واحد فقط؛ وبذلك تكون عتبة العبارة هي عتبة وجود الأدلَّة"،[31] نفهم من هذا، أنَّه يُمكننا إدراك العبارة، سواء من دليل واحد أو مجموعة أدلَّة، وبالتَّالي فالعلاقة بين الإشارة والعبارة متساويَة ولا فرق بينهما أبدًا، إضافة إلى أنَّ أهميَّة العبارة تكمن في تكوين الجمل، بحكم أنَّ الجملة تُعتبر الوحدة الأولى في الكلام، فكلُّ جملة لابدَّ من أن تتخلَّلها العبارة؛ فبالنسبة للتَّحليل النَّحوي، تُعتبر العبارة "مجموعة العناصر اللِّسانيَّة التي يُمكننا أو لا يُمكننا أن نَتَعَرَّفَ فيها على صورة جملة"،[32] فلا يمكن أبدًا أن نعثر على العبارة في غِياب الجمل.

ومن جهة أخرى، يرى "فوكو" أنَّ العلاقة بين العبارة والقضية المنطقية، أمرٌ لابدَّ من الفصل فيه؛ فالقضيَّة في المنطق، تعني تلك الوحدة المتكوّنة من موضوع ومحمول ورابطة، من هنا يعتقد "فوكو" أنَّ القضية غير لازمة لتكوين العبارة، لأنَّه من الممكن الحديث عن عبارتين تَنتميَان إلى مجموعات خطابيَّة مختلفة، إلَّا أنَّنا لا نلمس فيها أيَّة قضيَّة، لأنَّ "المقاييس التي تسمح بتحديد هويَّة قضية ما، وبتمييز عدد آخر من القضايا داخل وحدة صيغة ما، وإظهار استقلالها أو اكتمالها، لا تصلح لوصف الوحدة المتميّزة للعبارة".[33] فالقضيّتان "لم يُصْغِ أحدٌ"، "صحيحٌ أنَّ أحدًا لم يُصْغِ"، لا يمكننا التَّمييز بينهما من وجهة نظر منطقيَّة، وفي الوقت نفسه، لا يمكن اعتبارهما قضيَّتين مختلفتين، في حين أنَّ القضيَّة "ملك فرنسا الحالي أصلع"، يمكن وصفها بأنَّها إمَّا صادقة أو كاذبة، لأنَّها ارتبطت بسيَاق ضمني يُؤَكِّدها؛ حيث يمكن اعتبارها كاذبة منطقيًّا، إلَّا أنَّها تُعتبر عبارة؛ فالعلاقة بين العبارة والقضية المنطقية، تَتحدَّد في كون العبارة تحتمل إمكانيَّة أن تُصَاغَ في قضية منطقية، لكن هذا لا يعني أنَّها تغيب إذا كانت القضية غائبة، فإمكانيَّة العثور على العبارة في كنف القضية قائمة، دون أن يكون هناك تلازم ضروري بين المفهومين.

نتيجة لهذا، أمكننا القول أنَّ العبارة أو المنطوق، يُمثِّل الوحدة الأساسية التي يتكوَّن منها الخطاب، وأنَّ بين العبارة والجملة والقضية والإشارة اللغوية، اختلافات وتمايزات، لابدَّ على الأركيولوجيا أخذها بعين الاعتبار في تحليل الخطابات؛ لأنَّ التَّداخل الحاصل بين مختلف المفاهيم اللُّغوية، هو ما يجعل من الأركيولوجيا منهجا مُتَمَيّزًا، لكون "فوكو" استطاع من خلال التَّمييزات السَّابقة، تبيين مدى الفرق الذي يوجد بين الأركيولوجيا كمنهج وصفي، عن باقي المناهج الأخرى، كاللِّسانيات والتأويل والتَّفكيك، خصوصا وأنَّ الوصف الحفري، مُوَجَّه مباشرة إلى تحليل الخطاب، وهو ما يتجسَّد عادة في اللغة.

2. الأركيولوجيا بين العلم والميتافيزيقا

أولا: الأركيولوجيا كمنهج علمي صارم:

لقد كان "فوكو" على غرار أقطاب البنيوية في المجالات المختلفة، أمثال "كلود ليفي ستروس" "Claude Levi Strauss" في مجال الأنثوربولوجيا، و"جاك لاكان" "Jacques Lacan" في مجال التحليل النفسي، و"لويس ألتوسير" "Louis Althusser" في مجال الفلسفة؛ ، يسعى إلى تحقيق العلمية والخروج من دائرة التفكير الميتافيزيقي، ومنه الوصول إلى الدِّقَّة في الأبحاث الفلسفية، فقد كان المسعى الأساسي لفوكو أنَّه أراد أن يجعل الفلسفة مبحثا علميا دقيقا،[34] يُضاهي في دقَّته المباحث العلمية الأخرى، وتكون نتائجها مُمَاثِلة لتلك التي حُقِّقت في الميادين العلمية المختلفة، فقد كان إيمان "فوكو" قويا بضرورة إلغاء الذَّات ومعارضة النزعة الإنسانية، فكان السبيل إلى ذلك التخلّي عن وهم النزعة الإنسانية والفكر التاريخي، عن طريق الاقتداء بالهدي العلمي، وفتح الباب أمام تأسيس نزعة إنسانية، نزعة مغايرة في منهجها ونتائجها لتلك التي شهدها الخطاب الحداثوي الأوروبي، نزعة مُؤسَّسة في قوامها على قواعد وأسس علمية دقيقة بعيدة في ذلك عن النسق الميتافيزيقي، مُحَطِّمة كل ما اعتُقد بأنَّه ثابت لا يتغير؛[35] خصوصا وأنَّ السياق الفكري الذي نشأ في ظله "فوكو"، كان مُتمركزا حول الفكر البرغسوني والسّارتري، "فبرغسون"(Henri Bergson) بنزعته الروحية، اعتبر أنَّ الفلسفة الحقيقية هي الميتافيزيقا، المتَّجهة نحو الجوهر الداخلي للوجود الحيّ، وعلى أساس هذا الفهم للعالم بوصفه عملية إبداعية، بلور "برغسون" نظريته في المعرفة، لتصبح معها مقولات النشاط والحدس والحرية من أساسيات هذه النظرية.[36] إضافة إلى مجموع الانتقادات التي وجَّهها "برغسون" إلى المنهج التجريبي خلال تطبيقه على المادة الحية، بدعوى قداسة هذه المادة وخاصة منها الإنسان ومن هنا كان الاهتمام الجوهري في الفلسفة البرغسونية بالجانب الذاتي (الروحي)، والإغفال أو التجاهل التَّام لمختلف المُنجزات التي حقَّقها العلم، فقد كان تركيز برغسون على الدَّيمومة وحرية الإنسان، بمثابة إعلاء للجانب الروحي والذاتية.

وغير بعيد عن "برغسون" نجد "جون بول سارتر"(Jean-Paul Sartre)، الذي انطلق في تحليله الأونطولوجي للوجود، بتحويله لعملية التفلسف من النظرة إلى الخارج إلى النظرة إلى

الذات الإنسانية، كونها تُمثُّل أساس الوجود الإنساني، هذا الوجود الساعي دائما إلى البحث عن الحرية، في خِضمِّ القلق ومختلف الحالات النفسية التي تعيشها الذات الواعية، ومن هنا تبين الفرق بين وجودية سارتر والفلسفة العلمية، التي احتضنت وتبنَّت مبادئ المنهج التجريبي فالمعرفة عند سارتر تكون عن طريق المشاركة، بمعنى تلك التجربة التي تعيشها الذات، في حين أن المعرفة التجريبية هي ما يرادف التجربة الحسية.[37]

وعليه كان عمل "فوكو" ومهمّته الأساسية، هي النَّظر بعين الناقد لمثل هذه الأطروحات، سعيا منه لوضع قطيعة إبستيمولوجية مع التراث الفكري الغربي الذي شيَّدته الحداثة الغربية، على غرار ما فعله "غاستون باشلار" في نظرية الهدم والبناء، فقد دعا "فوكو" إلى ضرورة تحرير الخطاب من كل الرُّؤَى الذاتية والأيديولوجية، أو السلطوية أيًّا كان مصدرها، فمهمَّة الفيلسوف في نظره الكشف عن الحقيقة بين ثنايا الخطاب، وإن كانت الحقيقة غير مُحدّدة وغير واضحة المعالم، "فمن الفهم الذاتي تنبجس الحقيقة كاختزال للمشروع الذاتي للفيلسوف حينها تُدْرَكُ اللحظة التحريرية للفيلسوف حين يجد نفسه خارج عتبة الموضوعي".[38]

لم تعد الحقيقة إذن -مع "فوكو"- ذلك الثابت المستقر، الذي لا يعرف التَّغيُّر والتَّحوُّل عن مساره الذي وُضع فيه، بل أصبحت معه وغيره من الفلاسفة المابعد حداثيين، قابلة للتأويل والتفكيك، لتأخذ دلالات وأبعاداً ربما كانت خفيَّة فيما مضى، فقد حاول "فوكو" رصد التاريخ الحضاري للفكر والثقافة الغربيَّين، واضعا قطيعة مع كل ما يُمثِّل المرجعيَّة الفكرية الثَّابتة فالقراءة الجديدة التي أتى بها "فوكو"، أو الكتابة التاريخية إن صحَّ القول، تُمَثِّل ثورة منهجية في كتابة التاريخ، ثورة قائمة على الانفصالية وتعدُّد مستويات التحليل، وإعادة بناء مقولة الحدث التاريخي باختلاف مجالاته وأبعاده. فالأركيولوجيا الفوكوية تُعدُّ بمثابة ثورة منهجية ضد المناهج الغربية المتَّبعة، والمعتمدة في دراسة التراث باختلاف مجالاته وحقبه، فلم تُقنع تلك الدراسات "فوكو"، من زاوية أنَّها جعلت المعرفة تقبع خلف أسوار الثبات والتجمُّد اللامتناهي، بل سعى إلى فتح الباب نحو أُفُق فكرية مجهولة النتائج معلومة المبادئ والأسس.

ثانيا: تقويض خطاب الميتافيزيقا:

إذا كان "فوكو" قد اتَّخذ من العلمية سبيلا يلزم اتِّباعه لتحقيق اليقين، فهذا ما يلزم عنه اتجاهه إلى مشروع تقويض الميتافيزيقا، أو تفكيك النسق الميتافيزيقي؛ ومن هذا المنطلق سيتبلور فهم جديد للحقيقة، فإن كانت محاولة "كانط" لجعل الميتافيزيقا علما قائما بذاته كباقي العلوم الأخرى، لها مكانتها في التاريخ الفلسفي، "فإنَّ "ميشيل فوكو" سينحو نحوا مغايرا لذلك تماما، ذلك أنَّه عندما تَرِدُ فكرة تقويض الميتافيزيقا، تُحِيل مباشرة إلى تقويض للتاريخ الذي تُقَدِّم به الميتافيزيقا نفسها، في الشكل الذي أعطاه إيَّاه "هيجل" وهدما للتاريخ الهيجلي، وتقويضا لمفهوم الزمان التاريخي كما أرسته المثالية المطلقة"[39] وهذا ما يُقرِّره "فوكو" في قوله: "أُدرك أنَّ عصرنا كلُّه حاول بكل الوسائل أن يفلت من قبضة هيجل سواء عن طريق المنطق أو عن طريق الإبستيملوجيا، أو عن طريق ماركس أو عن طريق نيتشه[...] لكنَّ الانفلات من قبضة هيجل، إنَّنا نُقدِّر بدقَّة تكاليف هذا الانفلات، وإنَّنا واعون إلى أيِّ حدٍّ هو قريب منَّا بطريقة ماكرة، وإنَّ ما تبقَّى لنا من هيغلية، هو الذي يسمح لنا أن نُفكِّر ضِدَّ هيجل".[40]

يتَّضح من خلال هذا النَّص، مدى الحضور القوي للفلسفة الهيجلية، وإن في صورتها السلبية، فقد أقرَّ "فوكو" أنَّ الفكر الفلسفي الذي يسير في الخطى الهيجلية، يجب التَّخلي عنه أو بالأحرى مجاوزته، فالفلسفة كما كان سائدا في خطاب الحداثة الغربية، قد اكتملت عند "هيجل"، ومن المعاني التي يمكن أن تُعطى لهذا المفهوم، هو أنَّ الفلسفة لم يكن لها تاريخ إلَّا عند المثالية المطلقة، فمع "هيجل" ارتفعت الميتافيزيقا إلى مستوى التاريخ في صُوَرٍ متعدِّدة، ومن أهمِّها أنَّ "هيجل" هو الذي وحَّد الشَّتات الفلسفي، في تاريخ تحدَّدت نهايته في المعرفة المطلقة، بما تحمله اللَّفظة والمفهوم من معنى.[41]

انطلاقا من هذا الواقع الفكري، كان "فوكو" دائم التساؤل عن إمكانية قيَام فلسفة بعد الفلسفة الهيجلية، وهي الإشكالية التي فرضت نفسها في الخطاب الفلسفي المعاصر، كما هو الحال في فينومينولوجيا "هايدغر"، في محاولة منها لمجاوزة الميتافيزيقا التي اعتبرها "هايدغر" نسيان الوجود، إلَّا أنَّه في قراءته لهيجل، يقف موقف المُؤيِّد، باعتباره التَّحديد الهيجلي للتاريخ

كنمو للفكر ليس تحديدا خاطئا، لكنَّه ليس كذلك بالتَّحديد الصحيح في جزء منه والخاطئ في الآخر، إنَّه صحيح صحَّة الميتافيزيقا التي استطاعت مع "هيجل" ولأول مرَّة أن تجد التعبير عن ماهيتها المطلقة في المنظومة الفلسفية؛[42] ومن هنا يتبيَّن أنَّ "هيجل" مثَّل نقطة هامة في الفكر المعاصر، وإن كانت بالصورة النقدية، لكنَّها تُعتبر مرتكزا أساسيا في قيام فلسفة تخرج عن النسق الميتافيزيقي، فقد أكَّد "فوكو" دائما على السلطة التي فرضها النسق الهيجلي على الفلسفة المعاصرة برمَّتها، حيث اعتبر أن مهَّمته تتلخَّص في محاولة جادَّة لتحطيم الألواح التي وضعها النَّسق الهيجلي.[43]

وبناءً على ما تقدَّم يتساءل "فوكو": "هل مازال بإمكاننا أن نتفلسف في مجال ما بالاستغناء عن هيجل؟ هل يجوز أن توجد فلسفة غير هيجلية؟ وما هو هيجلي في فكرنا، هل يُعدُّ بالضرورة غير فلسفي؟ وكل ما هو مناقض للفلسفة، هل يُعدُّ بالضرورة غير هيجلي".[44] فقراءة "فوكو" لهيجل كانت منطلقا حاسما في مشروعه النقدي بحكم أنَّ الفلسفة التي فرضها البراديغم الهيجلي في مختلف مستوياتها، نصَّبت نفسها كراع للفكر الفلسفي، أو كإطار عام لأيّ محاولة للتفلسف؛ مُعتبِرة أيَّ محاولة للخروج عن هذا الإطار مآلها السقوط والفشل، أو الخروج عن الفلسفة، لكن "فوكو" رأى أنَّ هذا الأنموذج الميتافيزيقي قد استنفذ كل مقولاته، ومن الضرورة البحث عن سُبُل أخرى لإنتاج الحقيقة الفلسفية، وإن كانت هذه الأخيرة غير محدَّدة؛ فقد حاول "فوكو" أن يتجاوز تلك النظرة الضَّيِّقة لمفهوم الحقيقة في مختلف مستوياتها، فليس من الجدوى البحث عن الحقيقة في إطار محدود، بل الأجدر أن نُؤَرّخ لتلك الحقائق، ونقوم بقراءة نقدية للتاريخ في كلّ حقبه الزمنية، من خلال الأثر المتواجد داخل الخطابات المتعددة.

تتَّضح إذا وجهة نظر "فوكو" من المناهج المعتمدة من طرف الفلاسفة في معالجتهم لمختلف المشكلات الفلسفية، إذ عاب عليها الثَّبات والاستقرار عند نقطة واحدة وخصوصا مع تضييق الإطار العامّ للقراءات التاريخية، تلك القراءات التي ظلَّت ثاويَةً بين ثنايا الحُطام الميتافيزيقي الذي تجاوزته مقولات الخطاب المعاصر، إضافة إلى أنَّ الدَّور المنوط بالمثقَّف، لم يعد يتمحور

حول النقد وصياغة الحلول للمشكلات المختلفة، سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي الأنثربولوجي، في حين أنَّ الذات تبقى محلَّ المتلقِّي لا النَّاقد. وهذا بحسب "فوكو" نتيجة لغياب الحسِّ النقدي، وبهذه الصورة يكون العمل الفلسفي قد ابتعد كلِّية عن جوهره، لأنَّنا "في الفلسفة لا ننتهي، فَقَدَرُها أن تظلّ تسأل باستمرار لتُجيب، لتتحوَّل الإجابة إلى سؤال جديد، وهي كَرُوح تساؤلية نقدية، ترفض أن تَتَجَمَّد في المعنى الواحد، أو الحقيقة الواحدة، فتراها باستمرار تُحارب الحقائق، تَنَكُّرا لِوثنيَّة الفكر، حِفاظا على إبداعية العقل، وضمانا لاستمراريَّتها وتَجدُّدها، فتاريخ الفلسفة تاريخ قطيعات وثورات إبستيمية تَتَحدَّد بمقتضياتها الحقائق وتَتَعَدَّد الأنساق".[45] في حين أنَّ العقم الذي أصاب المناهج التقليدية، جعل من الحس النقدي الصارم يكون غائبا عن المشهد الفلسفي، فتربَّعت الميتافيزيقا على عرش الفلسفة، فكان نتيجة ذلك، اتِّساع الهوة بين الإنسان وكينونته الأصيلة، وترتَّب عن هذا الواقع الفكري المتأزِّم، تصوُّرٌ للذات قائم على مختلف أشكال التَّطويع والتَّقييد والتَّدجين، بحكم أنَّ الخطاب السلطوي المعرفي، قد عمل دور الوصاية المطلقة على الذات. ومن هذا المنطلق اتّجهت الأبحاث الفوكوية صوب تحرير الفكر من القيود التي فرضتها النسقية، وضاعت في خِضَمِّها أنطولوجيا الذات الغربية، وتناثر وجودها بين الشبكة السلطوية ومؤسساتها المختلفة؛ فكانت الأركيولوجيا الفوكوية بآلياتها الحفرية بمثابة كشف للممارسات السلطوية في المجالات المتعدِّدة، وزعزعة لليقين الذي رسمت معالمه مقولات الخطاب الحداثوي،فاستطاعت بذلك التنقيب في مختلف الآليات السلطوية التي عملت على تطويع الذوات عبر تنظيراتها وممارساتها على حدٍّ سواء، والكشف عن مدى التواشج الحاصل بين ثنائية المعرفي/ السلطوي، وكيف أنَّ كلا المقولتين تعملان لتحقيق هدف واحد وهو التدجين والتطويع.

الهوامش والإحالات:

1- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، (تر: سالم يفوت)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2005، ص 125.

2- المصدر نفسه، ص 125.

3- المصدرنفسه، ص 126.

4- الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 2000م، ص 113.

5- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، المصدر السابق، ص 122.

6- عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، -مجاوزة الميتافيزيقا-، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 2000، ص 62.

7- Angèle kremer-marietti, Michel Foucault et L'archéologie du savoir, edition Seghers, Paris, 1974, p 71.

8- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، المصدر السابق، ص 176.

9-المصدرنفسه، ص 176.

10- أوبيردريفوس وبول رابينوف، ميشيل فوكو-مسيرة فلسفية-،(تر: جورج أبي صالح)، مراجعة وشروحات، مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ص 23.

11- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، المصدر السابق، ص 126.

12- المصدر نفسه، ص 126.

13- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، المصدر السابق، ص ص 126-127.

14- المصدر نفسه، ص 127.

15- المصدر نفسه، ص 127.

16- المصدر نفسه، ص 127.

17- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، المصدر السابق، ص 128.

18- المصدر نفسه، ص 128.

19- المصدر نفسه، ص 129.

20- المصدر نفسه، 129.

21- المصدر نفسه ،ص 129.

22- ميشيل فوكو، جينيالوجيا المعرفة، نظام الخطاب، (تر: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي)، دار توبقال، المغرب، ط2، 2008، ص 129.

23- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، المصدر السابق، ص 127.

24- ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، (تر: سعيد بنْكراد)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006، ص 49.

25- ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، (تر: مطاع صفدي)، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص 115.

26- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، المصدر السابق، ص 76.
27- المصدر نفسه، ص 108.
28- المصدر نفسه، ص 76.
29- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، المصدر السابق، ص 28.
30- المصدر نفسه، ص 80.
31- المصدر نفسه، 80.
32- المصدر نفسه، ص 80.
33- المصدر نفسه، ص 77.
34- عمر مهيبل، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار العربية للعلوم، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص 222.
35- عبد الرزاق الدُّواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، هيدجر- ليفي ستروس- ميشيل فوكو، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1992، ص 07.
36- الزواوي بغورة، المنهج البنيوي، بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2001م. ص 51.
37- فريدة غيوة حيرش، من الوجود الزائف إلى الوجود الأصيل، مطبوعات جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، ص 31-32.
38- محسن صخري، فوكو قارئا لديكارت، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1997، ص 38.
39- عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، -مجاوزة الميتافيزيقا-، المرجع السابق ص 24.
40- ميشيل فوكو، جينيالوجيا المعرفة، نظام الخطاب، المصدر السابق، ص 39.
41- عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي، -مجاوزة الميتافيزيقا- ، المرجع السابق، ص 22.
42- عبد السلام بنعبد العالي، هيدجر ضدّ هيجل -التراث والاختلاف-، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 2006، ص ص 60-61.
43- السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط2، 2004، ص 21.
44- ميشيل فوكو، جينيالوجيا المعرفة، نظام الخطاب، المصدر السابق، ص 39.
45- عبد الرحمان التليلي، فوكو: الحفريات منهج أم فتح في فلسفة؟، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 30، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2002، ص 21.